

### المحاضرة العاشرة: همزية حسنة

عَفْتُ ذات الأصابع فالجواء  
ديارٌ من بني الحسحاس قفرٌ  
ونشربُها ففتركنا ملوكاً  
عِدْمنا خيلنا إن لم تروها  
يبارين الأعنة مصعداتٍ  
تظل جياذنا متمطراتٍ  
فأما تعرضوا عنا اعتمرنا  
والأ فاصبروا لجلادٍ يومٍ  
وجبريلُ رسول الله فينا  
وقال الله قد أرسلتُ عبداً  
شهدتُ به فقوموا صدقوه  
وقال الله قد يسرتُ جنداً  
لنا في كل يومٍ من معدي  
فحكم بالقوافي من هجانا  
ألا أبلغ أبا سفيان عني  
بأن سيوفنا تركتك عبداً  
هجوت محمداً فأجبتُ عنه  
أتهجوه ولست لــــه بكفءٍ  
هجوت مباركا براً حنيفاً  
فمن يهجو رسول الله منكم  
فإن أبي ووالده وعرضــــي  
فأما تتقفن بــــنو لؤيٍ  
أولئك معشرُ نصرُوا علينا  
وحلفُ الحارث بن أبي ضرارٍ  
لساني صارمٌ لا عيب فيــــه  
وأحسن منك لم ترَ قط عيني  
خُلقت مبرءاً من كل عيبٍ

إلى عذراء منزلها خلاء  
تُغفيها الروامسُ والسماءُ  
وأسداً ما ينههنا اللقاءُ  
تنثُرُ النقع موعدها كداءً  
على أكتافها الأسلُ الضماءُ  
تَلطِمْهِنَّ بالخميرِ النساءُ  
وكان الفتحُ وأنكشف الغطاءُ  
يعزُّ الله فيه من يشاءُ  
وروح القدس ليس له كفاءُ  
يقول الحقُّ إن نفع البلاءُ  
فقلتم لا نقوم ولا نشاءُ  
هم الأنصار عُرضتها اللقاءُ  
سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ  
ونضرب حين تختلطُ الدماءُ  
فأنت مُجَوِّفٌ نخبُ هواءُ  
وعبدُ الدار سادتها الإمامُ  
وعند الله في ذاك الجزاءُ  
فشركما لخيركما الفداءُ  
أمين الله شيمته الوفاءُ  
ويمدحه وينصره سواءُ  
لعرض محمدٍ منكم وقاءُ  
جذيمةٌ أن قتلهم شفاءُ  
ففي أظفارنا منهم دماءُ  
وحلفُ قريظةٍ منا براءُ  
وبحري لا تكدره الدلاءُ  
وأجمل منك لم تلدِ النساءُ  
كأنك قد خلقت كما تشاءُ

- من 11-16 : تهديد للمشركين، وهو الموضوع الأساسي بلهجة شديدة تبين ثقته في نصر الله وما تخيله قد حدث بالفعل في فتح مكة.

- من 16-21 : فخر إسلامي يفخر بأن روح القدس معه مبتعداً عن الفخر القبلي متحدثاً باسم عموم المسلمين بدون ذكر لأسماء قبائل.
- من 22-25 : هجاء لأبي سفيان مجرداً إياه عن قريش، لأن الرسول من قريش، ثم يصفه بالجبن، وأنه تقلبه الأهواء وضعف رأيه بدليل أنه يوم أُحد كان أبو سفيان يوجه المشركين وجعل أبو سفيان لواء المشركين بيد بني عبد الدار كان يحمله أولاً طلحة بن أبي طلحة، وقتله علي فأشار أبو سفيان بأن يحمله أخوه عثمان فقتله الحمزة، ثم قتله سعد بن أبي وقاص، ثم حمله مسافع بن طلحة فقتله عاصم بن ثابت، ثم حمله عبد اسمه صواب، ثم حملته امرأة.
- من 26-28 : مديح الرسول- صلى الله عليه وسلم-.
- من 29-32 : فخر جماعي.

### مسألة ضعف شعر حسان في الإسلام:

يقول البعض بضعف شعر حسان في الإسلام عدا الهجاء، إذ بقيت أساليبه الجاهلية من تعبير بالأيام والمثالب، ويستند المعتقدون بذلك إلى محاورة دارت بين الأصمعي والسجستاني، فكان الأصمعي يشيد به ويصفه بأنه أحد فحول الشعراء، فأجابه أبو حاتم السجستاني: (تأتي له أشعارٌ لينة)، فأجابه الأصمعي: (تنسب له أشياء لا تصح عنه). ويستندون كذلك إلى قول الأصمعي في حسان بما معناه أن شعر حسان دخل الخير فضعف مستشهداً بمراثي الرسول والصحابة، وإن طريق الشعر الصحيح هو طريق الفحول كالأعشى ولبيد والذبياني الذين قالوا ما لم يحلله الإسلام.

وإذا ما أخذنا شعر حسان بن ثابت في عقائد المسلمين كمدح المسلمين والفخر بهم، فإن اللين قد يخص هذا المجال من شعره (على فرض أنه لان) كالفخر بهم ومديح الرسول، لكن الهجاء الذي كان يصبه على المشركين لا يدخله هذا اللين لأنه بقي بنفس أسلوب هجاء الجاهلية.

### أسباب هذا الضعف:

1. انبهاره بعظمة وبلاغة القرآن وأحاديث وخطب الرسول مما جعله يحبط لعدم وصول مستوى شعره إلى هذا المستوى الراقى.
2. أكثر أشعاره قيلت ارتجالاً، ولذلك سمي بشاعر الطوارئ، فشعره غير منقح، وكان الرسول كثيراً ما يدعوه فجأة ليرد عن المسلمين في موقف معين طارئ، والشعر المرتجل بالتأكيد ليس كالشعر المنقح والمعاد النظر والتفكير فيه.
3. نظم شعره الإسلامي وهو شيخ هرم كبير، والشعر يشيخ مع الجسم (وفي هذا شك).
4. سئل حسان عن لين شعره فقال: (الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب).
5. شعر حسان في العقائد الإسلامية قيل في الإسلام بمعنى أن المبادئ الإسلامية فرضت على المسلمين أموراً كثيرة، فمن طبع الإسلام اللين والرقّة وعدم المبالغة والاعتدال والاتزان.

وانعكس كل هذا على شعر حسان لالتزامه بالإسلام، فلا يصح أن ننقد الشعر الإسلامي بمقاييس الشعر الجاهلي، لأن لكل عصر ظروفه الخاصة وأحداثه، وعلى هذا الأساس تختلف أغراض وأنواع وقوة الأشعار في العصور المختلفة، لأن الشعر مرآة الأمم يعكس ظروفها.

ولو قارنا بين شعره الجاهلي والإسلامي ووجدنا الضعف في الثاني، يمكننا القول أن أشعاره اللينة موضوعة عليه، كما قال الأصمعي، وهو راوٍ ثقة يُستعان برأيه. كذلك يمكننا القول أن أشعاره الجاهلية لم تكن جميعها قوية جزلة المعاني بما يعني أن ضعف شعره ليس سببه الإسلام.

وأما قول الأصمعي بأن الشعر إذا دخل فيه الخير ضَعُف، فهو قول مردود عليه لأن أشعار حسان الجاهلية حَوّت معاني الخير كما حوتها أشعار غيره من شعراء الجاهلية، إذ لم تكن أشعارهم قاصرة على الشر.

### شرح القصيدة (متى قيلت القصيدة) ؟

يقال أنها قيلت قبل فتح مكة، والرأي الآخر أن هذه القصيدة قيلت أول ما ابتدأ الشعر في هجاء قريش، وهو رأي شوقي ضيف، والرأي الثالث أنها قيلت في فتح مكة وهي رواية ضعيفة بسبب أن هناك كثيراً من المعاني تدل على أنها قيلت قبل فتح مكة، ولا بد من قرينة تدل على ذلك منها أن بعض المسلمين ردّوا بعض هذه الأبيات عند فتح مكة في البيت:

تظل جياندا متمطراتٍ                      تلطمهن بالخمير النساء  
(لأنهم رأوا معناه مجسداً أمامهم في الواقع) مما يدل على أن القصيدة قيلت قبل فتح مكة.

تتألف المقدمة من عشرة أبيات وتدور معانيها حول الوقوف على مواضع في بلاد الشام (ذات الأصابع، الجواء، عذراء) وهي اليوم مقفلة بعد أن كانت زاخرة بأهلها، ثم يصف حبيبته ويتذكرها ويتغزل بها، ثم يشبه رضاب حبيبته بالخمير لينتقل إلى وصف الخمر، ويصف أصحابه كيف يشربونها وكيف يصير حالهم بها.

وكما يبدو أنها تحمل الكثير من معاني الجاهلية التي لا تتناسب مع روح الإسلام وتعاليمه، ونتساءل: هل من الممكن، يكون حسان بعد إسلامه قد قال مثل هذا القول؟ والجواب بالتأكيد يكون بالنفي وهي تدل على أنه لم يقلها في الإسلام.

يقال أن حسان مرّ في عهد الإسلام على قوم كانوا يشربون الخمر وقد أغاظه ذلك فعابه عليهم، فقالوا:

(يا أبا الوليد لم نأخذ هذا إلا منك، وكلما نهم بتركها نتذكر قولك:

ونشربُها فنتركنا ملوكاً                      وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

فنرجع إليها، فقال حسان: والله لقد قلّتها في الجاهلية وما شربتها منذ أسلمت).

وذكر ذلك ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب.

وقال مصعب: (بدأها في الجاهلية ثم أكملها في الإسلام)، ويعني ذلك أنه لما أراد هجاء أبي سفيان أتى بهذه المقدمة الجاهزة.

(س) ألم يعلم حسّان أن هذه الأقوال الواردة في المقدمة مستهجنة في الإسلام؟

يقال أن حسّان عرف ذلك، ولكنه مع ذلك عرف في نفس الوقت أن المسلمين يقدرّون ذلك لكونها تقليداً لطريقة الشعراء المعروفة في الاستهلال.

ولو غيّر هذه المقدمة لاحتاج منه ذلك إلى وقت وهو شاعر يقول الشعر ارتجالاً، لذا سمي بشاعر الطوارئ، وكثير من قصائده الإسلامية نجده يقول فيها مقدمات قصيرة جداً لأن شعره ارتجالي سريع يناسب المواقف الإسلامية السريعة. ثم أن هناك من يذهب إلى أن المقدمة خصّصت لذات الشاعر لأن الشاعر إذ يمدح أصحابه يمدح نفسه.

قسمت مقدماته إلى قسمين في الإسلام:

1. مقدمات غزلية رقيقة.
2. مقدمات طليّة قليلة مجتزئة يقول فيها (دع) فيجتزئها لينتقل إلى غرضه الأصلي. والمقدمتان يبيحها الإسلام.

وبعض القصائد بلا مقدمات، ومعنى ذلك أن بنية القصيدة العربية تطورت بالابتعاد عن وصف الأطلال، فحسّان بن ثابت أول من دعا لترك الوقوف على الأطلال، ولكن دعوته تلك كانت دعوة عملية غير مباشرة، لذا فمن الخطأ القول أن أبانؤاس أول من دعا لذلك، إنما دعت الظروف حسّان إلى أن يترك المقدمات لأنها تتطلب وقتاً ولا تصلح مع المواقف السريعة الإسلامية.

كذلك هناك رواية تقول أن لحسان قصيدة همزية جاهلية وأخرى همزية إسلامية، ولم يبق من الأولى سوى الأبيات العشرة المذكورة، لذا اقترنت بالثانية لشهرتها، وتركوا القصيدة الجاهلية، فهي إذا مقدمة منظومة في الجاهلية.